DIA Kayıp Arşivi
R. Kandilci

المغالون من ملوك العرب

(٢)

الخليفة
المتوكل على الله جعفر
ناصر السنّة

(٢٤٧ هـ)

تأليف

أكرم حسن العلبي

الخلفاء ثلاثة:

- **أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة.**
- **وعمر بن عبد العزيز ردّ مظالم بني أمية.**
- **والمتوكل، محا البدع وأظهر السنة.**

إبراهيم التيمي
قاضي البصرة

دار المأمون للتراث
دمشق - ص.ب: ٤٩٧١
بيروت - ص.ب: ٥٣٧٨ ١٣

جميع الحقوق محفوظة
لدار المأمون للتراث

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

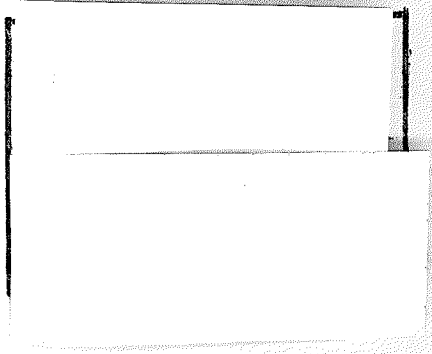

بسم الله الرحمن الرحيم

يمتاز العصر العباسيُّ عموماً، بسيطرة الموالي، وهم المسلمون من غير العرب، على مقاليد الحكم، ولئن استطاع الخلفاء العشرة الأوائل، أن يقفوا في وجه الموالي، فإنهم يُعدون مسؤولين عن ازدياد نفوذهم بدءاً من الخليفة الحادي عشر ـ المنتصر ـ وحتى سقوط الدولة العباسية بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م ذلك لأن الدولة العباسية قامت أصلاً بقوة الفرس ومؤازرتهم، وكان لأبي مسلم الخراساني الفضل الأول في قيامها. . . بن

وقد أدرك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، مدى الخطر الذي يشكله أبو مسلم عليه وعلى الدولة، فاستدرجه إليه، وقضى عليه غدراً، وكان هذا أول غدر في الإسلام[1].

(١) هناك من يقول إن غدر عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد بن العاص هو أول غدر في الإسلام، وهذا الثاني.

وفي عهد الرشيد سيطر البرامكة الفرس على الدولة من جديد، لكن الرشيد كان أقوى منهم، فأباد خضراءهم، واستأصل شأفتهم. وفي عهد ابنه الأمين كان النفوذ العربي واضحاً، لكنه سرعان ما تراجع بمقتل الأمين وسيطرة المأمون، وعاد الفرس من جديد يحكمون من خلف الستار.

وجاء المعتصم، وكانت أمه تركية، فاستنجد بالأتراك ضد الفرس، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد كثر عبث الأتراك بنساء بغداد وغلمانها، مما اضطره إلى بناء عاصمة جديدة هي «سامراء» رحل إليها مع غلمانه الأتراك.

وجاء بعده ابنه الواثق، وعندما مات، اجتمع الأتراك وقرروا تنصيب أخيه جعفر خليفة، أي أنهم من الناحية العملية كانوا فوق الخليفة، وبقي العداء بين الفريقين بانتظار الفرصة المناسبة.

وجاءت تلك الفرصَةُ، وقتل الأتراكُ المتوكّل، وكان مما شجعهم على ذلك مقتل الأمين من قبل، عن أمر أخيه المأمون ورأيه، وبمقتل المتوكّل، سيطر الموالي سيطرة فعلية على مقاليد الأمور، فصاروا يعزلون ويقتلون كما يحلو لهم، ثم ابتدعوا طريقة جديدة، لعلهم

اقتبسوها من البيزنطيين، وهي «السَّمْلُ» وكان الواحد منهم يدخل على الخليفة ويجذبه من مقامه، ثم يسحبُه برجله ليواجه مصيره المحتوم.

وقد قتل الموالي تسعةً من الخلفاء العباسيين، وسملوا ثلاثة، واكتفوا بعزل الطائع بدون أن يلحقوا به الأذى، أي أنهم تحكموا بأكثر من ثلث الخلفاء العباسيين، في الوقت الذي لم يكن فيه للآخرين معهم حول ولا طول، حتى قال الشاعر في الخليفة المستعين:

خليفة في قفصٍ بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا[1]

وقد أدت سيطرة الموالي على الخلافة العباسية إلى استخفاف أمراء الولايات بالخلافة، وقيام الإمارات المستقلة، وظهور خلفاء في الأندلس، والمغرب، وهو ما لم يكن له وجود من قبل.

وقد وقع اختيارنا على الخليفة المتوكل، ليكون ثاني الملوك المغتالين، لأسباب كثيرة منها أن مقتله أدى إلى سيطرة الموالي وانحلال أمر الخلافة، وأنه كان آخر الخلفاء العشرة الأقوياء، وأنّ قاتليه بقوا في مناصبهم، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً، وأنه أول خليفة يُقتل غيلةً وهو على

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة ١٣٠٥ هـ بمصر، ص ١٤٣.

مائدته، وهو أول خليفة يقتله ابنه، وهو فوق ذلك كله الخليفة الذي رفع محنة المعتزلة، وعاش الناس في عهده في حب وسعادة.

إننا نقدم لمحات من حياة المتوكل على الله، إحقاقاً للحقِّ، وتخليداً لذكرى الرجل الذي ترك بصماته واضحة في التاريخ العربي الإسلامي، وأبقى في النفوس لوعة يعرفها ويشعر بها، كل من يقرأ سيرته.

وكما فعلنا من قبل، فإننا سنكتفي بلمحاتٍ تبين جوانب شخصيّته وأهم أعماله، وأسباب مقتله ونتائجه، من خلال ما كتبه المؤرخون عنه، على ما في كتاباتهم من التناقضات، تاركين للعقل وحده مهمة الحكم، والله المستعان.

المتوكل على الله، هو جعفر بن محمّد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

ولد بـ «فم الصلح» ـ شمال واسط ـ بين سنة **٢٠٥** هـ و**٢٠٧** هـ. على اختلافٍ بين المؤرخين.

فقد قالت فيه جاريته «الفضل» لمّا أهديت إليه:

خلافةٌ أفضت إلى جعفرٍ
وهو ابن سبْع بعد عشرينا

إنّا لنرجُو يا إمام الهدىٰ
أن تملك الملك ثمانينا[1]

وبما أنه تسلم الخلافة سنة **٢٣٢**، فهذا يعني أنه ولد سنة **٢٠٥** هـ، في عصر عمه المأمون.

ولم يهتم المؤرخون بتاريخ ميلاده، لأن أحداً لم يتصور أن يصبح خليفةً في يوم من الأيّام[2].

وأمّه، أم ولد خوارزمية تدعى «شُجاع» كانت من سروات النساء سخاءً وكرماً.

وقد وصفه المؤرخون بأنه كان أسمر، حسن العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، إلى القصر أقرب، له جمة شعر إلى أذنيه، وكان يكنى بأبي الفضل.

وقد بويع بالخلافة يوم الأربعَاء **٢٥** ذي الحجة سنة **٢٣٢** هـ، وهو اليوم الذي مات فيه أخوه الواثق.

وكان قد اجتمع بدار الخلافة بسرّ من رأىٰ، أحمد بن أبي دؤاد، وإيتاخ ووصيف، وعمر بن فرج الرخّجي وعبد الملك بن الزيات وأحمد بن خالد، فبايعوا أولاً

(١) تاريخ الخلفاء/١٤١.

(٢) عن مولده انظر: تاريخ الطبري ٩/٢٣٠، وتاريخ بغداد ٧/١٦٥، ومروج الذهب ٤/٨٥.

لمحمد بن الواثق، وكان غلاماً حدثاً، فألبسوه لباس الخلافة، فإذا هو قصير، فقال لهم ابن أبي دؤاد: «أما تتقون الله، تولّون مثل هذا الخلافة، وهو لا يجوز معه الصلاة».

ونقل «الصولي» عن المتوكل، وصفاً لتلك الساعات الحاسمة، فقال: «ركبتُ إلى دار الواثق أزوره في مرضه الذي مات فيه، فدخلت الدار وجلست في الدهليز ليؤذن لي، فسمعتُ بكاءً بنياحةٍ تشعر بموته، فتحسّستُ وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات، يأتمران فيّ، فقال محمد: نقتله في التنور، وقال إيتاخ بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل، فبينما هم كذلك إذ جاء أحمد بن أبي دؤاد، فجعل يحدثهما بما لا أعقله، لما داخلني من الخوف، واشتغال القلب، بإعمال الحيلة في الهرب والخلاص، فبينما أنا كذلك، إذ خرج الغلمان يتعادون إليّ ويقولون: انهض يا مولانا، فما شككتُ أن أدخل وأبايع ولد الواثق وينفذ فيّ ما قد تقرر، فدخلتُ فلقيني أحمد بن أبي دؤاد، فقبّل يديّ وأمسكهما، إلى أن أتى إلى السرير وقال لي: إصعد إلىٰ المكان الذي أهلك الله له، فلما صعدت وجلست سلّم علي بالخلافة، وجاء الزيات وإيتاخ، فسلّما علي أيضاً، ثم دخل القواد فسلّموا، ثم الناس على طبقاتهم، فلما

انقضت المبايعة بقيت متعجباً مما اتفق، مع ما سمعتُه من كلام ابن الزيّات وإيتاخ[1]...

وثمة رواية أخرى، عن بيعة المتوكل، نقلت عن بعض من حضر الدار، قال:

«خرجتُ من الدار فمررتُ بجعفر المتوكّل، فإذا هو في قميص وسراويل قاعدٍ مع أبناء الأتراك، فقال لي ما الخبر؟ فقلت لم ينقطع أمرهم، ثم دعوا به، فأخبره بغا الشرابي الخبر، وألبسه ابن أبي دؤاد، الطويلة وعمّمه وسلّم عليه بالخلافة، وذلك ساعة موت الواثق ٢٥ ذي الحجة سنة ٢٣٢، ١٣ آب سنة ٨٤٧ م، ثم بايعته العامة حين زالت الشمس من ذلك اليوم».

والفرق بين الروايتين واضح، لأن الرواية الأولىٰ، التي انفرد بها ابن خلكان، تفسّر سبب نقمة المتوكّل على ابن الزيات وإيتاخ وإيقاعه بهما.

وقد لقب عند مبايعته بالمنتصر، ثم عدل عنه إلى «المتوكّل على الله» وأمر ابن الزيات بالكتابة بذلك إلى الناس والولاة، فنفذت الكتب وصورتها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر أمير المؤمنين أطال الله

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٧٦.